

الفكر الإسلامي قاعدة ومسارا

بقلم

الأستاذ محمد عبد الله السمان

الفكر الإسلامي قاعدة ومساراً

بقلم

الأستاذ محمد عبد الله السمان

مقدمة

لا جدال في أن الفكر الإسلامي وجد كائناً حياً ، منذ اللحظات الأولى التي بدأ فيها نزول القرآن على رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه .. ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق .. ﴾ . وليس مثار عجب أن تكون أول كلمة من كتاب الله — عز وجل — هي كلمة « اقرأ » لأن القراءة مصدر للمعرفة ، والمعرفة مصدر للفكر ، والدعوة الإسلامية إنما تقوم على المعرفة التي هي بمثابة غذاء الفكر .. صحيح أن الفكر الإسلامي — في بدايته — كان تعبيراً عن العقيدة .. ولكن أليست العقيدة — بالنسبة للإسلام — هي القاعدة والأساس ؟

بل إن العقيدة هي قاعدة الفكر الإسلامي ، ومنها ينطلق ، ليحدد معالم الإسلام ، ومعالم أمته ، بل ليكون في إطار العقيدة ، وفي خدمتها ، فإذا خرج عن إطارها ، أو تجاوز حدودها ، أو تحول ليكون في خدمة غيرها ، فلن يكون فكراً إسلامياً ، ولو زعم هذا ألف مرة ومرة .

* * *

والأصل أن العقيدة ثابتة .. لا يعترئها قصور ولا تقصير ، ولا ضمور ولا تحوير .. إلا أن مسار الفكر يظل قابلاً للمد والجزر ، والرشد والغبي التزاماً بالقاعدة أو تحللاً منها ، وانحرافاً عنها ، ومن هذا المنطلق ، لا يستمد الفكر الإسلامي أصالته إلا من القاعدة ، وإلا كان فكراً دعياً لا يمت إلى الإسلام بصلة ، حتى وإن نسبته أهله إليه ..

إن الفكر — أي فكر — قد ينشأ سليماً ، ثم يطرأ عليه ما يطرأ في مراحل مساره ، ولا جدال في أن الفكر الإسلامي — شأنه شأن أي فكر — بيد أنه نشأ سليماً إلى درجة اليقين — أما مساره فقد عرض للفكر الدخيل .. الفكر الذي ارتدى رداء زائفاً يوهم بأنه رداء الإسلام . والحق أن الفكر الإسلامي ، قد بدأت محتته مبكراً . ولما يمض على وفاة الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — أكثر من ربع قرن — أي ابتداء من فتنة عثمان بن عفان .. رضى الله عنه .

لقد فرض على الفكر الإسلامي — ابتداء من فتنة عثمان — أن يعاني ألواناً من الفكر المنحرف أو المضطرب ، أشاعه مسلمون بحسن نية ، أو منتسبون إلى الإسلام بسوء قصد ، ولم يقف الأمر عند حدود مواجهة الرأي بالرأي ، بل تجاوزها إلى المواجهة بالسيف حيناً ، وبالسوط حيناً آخر ، وكان أن سالت دماء صار أمرها مفوضاً إلى الله — عز وجل — وتعرض علماء أفذاذ للامتحان ، فصمدوا بإيمانهم ، برغم عنف الامتحان وقسوته ..

وأصبحت القضية اليوم أهم من ذلك بكثير ..

إن الفكر — المنحرف والمضطرب معاً — لم يرفع الراية البيضاء ، وعلى مسار القرون الأربعة عشر الماضية ، لقد سجل نتاج ذلك الفكر في كتب تنسب إلى تراث الفكر الإسلامي ، وما تزال تطبع وتنتشر ، وتدرس في الجامعات والمعاهد ، كذلك استغل الفكر نفسه المستشرقون ، لغير مصلحة الفكر الإسلامي الأصيل بالطبع .

وفي العصر الحديث ، بدأ الفكر الإسلامي يسترد شبابه وفتوته مرة أخرى ، ووجد في أذهان الشباب المسلم المتدين مكاناً فسيحاً ، وأعان على ذلك ، الظروف السياسية والاجتماعية في الأمة المسلمة ، والمرفوضة رفضاً باتاً من أولئك الشباب ، الذين نحسن الظن بنواياهم ، ونتوقف إزاء تفكيرهم ..

* * *

تمهيد

لا جدال في أن الفكر الإسلامي المعاصر ، يقف في مفترق الطرق ، وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها فضلاً عن الجهل بها .

قد يكون المعنى القريب من الأذهان من « مفترق الطرق » — أن الفكر الإسلامي يقف وسط سائر الطرق التي تواصل الأفكار فيها مسارها ، ولكن هذا المعنى غير وارد هنا ، وإنما الوارد هو أن الفكر الإسلامي المعاصر يقف وسط الطرق دون أن يكون له طريق يواصل فيها مساره الصحيح كما يراد له .

وقد يقال : كيف يكون هذا ، والفكر الإسلامي — والحمد لله — بخير وما يزال يؤدي غايته ، فالمطابع لم تتوقف عن الإنتاج الذي يمثل ثمرات الفكر الإسلامي قديمه وحديثه ؟ وأقول : قد يكون لمثل هذا القول قيمته ، لو أننا نقوم الأفكار بالكم لا بالكيف ، ونحسب حساباً للمد الأفقي لا للمد الرأسي ، وتبهرننا ضوضائية الحركة لا اتزانها ..

نعم : إن لدينا أطناناً وأطناناً من تراث الفكر المنسوب إلى الإسلام ، ولكن بعد الغربة والتمحيص ، كم يتبقى لنا من هذا الخضم الهائل ، مما هو جدير بالانتساب إلى الفكر الإسلامي الأصيل ؟

ولا أقصد — بالطبع — هنا أن أغمط حق تراثنا الفكري من التقدير ، لأنه — أو بمعنى أدق — لأن بعضه يتضمن أصالة ، ولا غنى لنا عنه ، ولأن تاريخ هذه الأمة المسلمة يشهد لأعداد كثيرة من نوابع الفكر الإسلامي ، لهم أقدارهم ، وثالثاً — لأن هذا البعض المتضمن لأصالة الفكر الإسلامي هو الرصيد الذي منح الحياة والبقاء للفكر الإسلامي إلى يومنا هذا ..

والكلمة الفاصلة في هذه القضية — قضية التراث ، هي :

إنه لا يمكن الاستغناء عن تراثنا الفكري برمته ، ومن ناحية أخرى : إنه ليس معقولاً أن

تكون لهذا التراث قداسة محكمة ، مفروضة علينا ... مثل كتاب الله ، وما صح من سنة رسوله ﷺ .

* * *

عندما فكرت في كتابة هذا البحث : « الفكر الإسلامي : قاعدة ومسار » كانت تدور بذهني عدة خواطر :

أولا : أن للفكر الإسلامي قاعدة ثابتة راسخة ، مبنى ومعنى ، ولكي يؤدي هذا الفكر رسالته — كما ينبغي في هذه الحياة ، يجب — من ناحية — أن تظل القاعدة ثابتة راسخة ، على الأقل بالنسبة لأصولها ، و — من ناحية أخرى — يجب أن يظل معنى القاعدة ومبناها متعاونين معا ، حتى تصمد أمام التحديات التي ستواجهها ..

ثانيا : أن للفكر الإسلامي منابع وثيقة الصلة بالقاعدة ، مستمدة من أصلين جوهريين ، هما : كتاب الله — عز وجل — وسنة رسوله الصحيحة — صلوات الله عليه — وليس معنى هذا أن يكون الجمود صفة ملاصقة للفكر الإسلامي ، فالفكر الإسلامي متطور بطبعه لأنه يمثل معالم دين أريد له أن يكون خاتم الرسالات السماوية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثالثا : أن للفكر الإسلامي مسار ، بدأه مع بداية الدعوة الإسلامية ذاتها ، وما يزال حتى اليوم يواصل مساره ، والعبرة ليست بمواصلة المسار ، وإنما بكيفية المسار نفسه ، والحقائق — وإن كانت مريرة — هي أن في عصر النبوة ، وعهدي أبي بكر وعمر ، وشطرا من عهد عثمان ، كان مسار الفكر الإسلامي صحيحا مائة في المائة ، وقد عدت هذه المرحلة التي امتدت أكثر من ربع قرن — بعد وفاة الرسول ﷺ — نموذجا رفيعا للفكر الإسلامي الأصيل ..

رابعا : أنه بعد انتهاء تلك المرحلة الذهبية السابقة ، بدأت مراحل التداخل ، حيث بدأت تطفو على السطح أفكار قلقة تنتمي إلى الفكر الإسلامي ، منتهزة الخلاف الذي حدث بين علي ومعاوية ومن قبل ذلك فتنة مقتل عثمان .. رضي الله عن الجميع ، وقد أدى هذا إلى تصدع سياسي في بناء الأمة المسلمة ، والدولة الناشئة ، كما أدى أيضا إلى شيء من القلق في رصيد الفكر الإسلامي الأصيل وقد كان للأهواء أثر خطير على أيدي أناس أسلموا شكلا لا موضوعا .

خامسا : أن المقاومة لتلك الأفكار القلقة كانت متأنية ، فقد توقف كثير من علماء الصحابة والتابعين — الأوائل منهم والأواخر — عن التدخل بشكل مباشر ، اعتقادا منهم أن حركة

الأفكار حركة سياسية واعتزالاً منهم للفتنة ، امتثالاً لتوجيهات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ..

سادساً : أن الفكر الإسلامي المعاصر فكر يتأرجح بين الأصالة والإمالة وأعني بالإمالة : الانحراف عن الأصالة ، ونسبة الأصالة متواضعة للغاية ، بل إن نتاج الفكر الأصيل يكاد يتيه في خضم الفكر المنحرف ، وعلة ضخامة الفكر المنحرف أمران :

أولهما : أن الفكر الإسلامي لم تعد له ضوابط تحكم مساره ، وحركة النقد بالنسبة له لا تكاد تذكر ، لأن الفكر الإسلامي لاحظ له في وسائل الإعلام التي تفسح صدرها رحباً للفن الرخيص والأدب .

وثانيهما : أن الفكر الإسلامي المعاصر أصبح يدور في حلقة مفرغة يناوشه فكر معتد عليه ، وفكر مستورد له ، والاعتداء عليه واقع من أتباعه وخصومه ، وعملية استيراد المبادئ التي تفد من الشرق الإلحادي ، أو الغرب الصليبي . تجد تيسيراً مثيراً في ديار المسلمين ، بينما يطارد الفكر الإسلامي الأصيل في عقر داره ..

* * *

وبعد ...

فهذا البحث يتضمن مقدمة وتمهيدا وثلاثة فصول :

الأول : في إطار القاعدة :

(أ) الفكر الإسلامي : القاعدة والأهداف .

(ب) الفكر الإسلامي : المنابع .

الثاني : مع المسار :

(أ) بداية مراحل التداخل .. وبلا نهاية .

(ب) المقاومة المتأنية .

الثالث : مع الفكر الإسلامي المعاصر .

(أ) المفاهيم في الميزان .

(ب) الفكر المعتدي والفكر المستورد .

ثم الخاتمة :

المبحث الأول :

في إطار القاعدة :

* الفكر الإسلامي : القاعدة والأهداف

* الفكر الإسلامي : المنابع

الفكر الإسلامي : القاعدة .. والأهداف

إن أي فكر بلا قاعدة ، لا يمكن أن يكون فكراً ، بل أخرى به أن يكون من قبيل أضغاث الأحلام .. وسلامة الفكر وثيقة الصلة بسلامة القاعدة ، ولا يهم مدى صحة الفكر أو سقمه عقلاً ومنطقاً وواقعاً ، بل المهم اتساق الفكر مع القاعدة .

فالماركسية مثلاً فكر سليم باعتبار قاعدته ، لأنه متسق معها ومنبثق منها ، ولكنه فكر سقيم باعتبار مدلوله وسقم قاعدته ، وما ينطبق على الماركسية ، ينطبق على سائر المذاهب حديثها وقديمها ، وعلة ذلك أن هذه المذاهب هي من صياغة العقل البشري ، غير المعصوم من الهوى والتهور ، وقد يكون المذهب من هذه المذاهب استجابة لنزعة فرد استطاع أن يقنع بها الآخرين .

وبذلك يتميز الفكر الإسلامي عن سائر الأفكار التي سبقته أو جاءت بعده .. بأنه فكر من صنع الله عز وجل ، بلغ به نبي مرسل ، لا ينطق عن الهوى ، لقد عرف قبل بعثه بالأمانة ، وقد لازمته هذه الصفة بعد مبعثه وهذا شيء طبيعي .. كذلك يتميز الفكر الإسلامي عن غيره بأن الأصالة فيه هي القاعدة ، وأن الاستثناء هو الانحراف به عن مساره الصحيح ، إما نتيجة الجهل به ، وإما نتيجة لتسلل الأهواء إلى بعض العقول .

إن لقاعدة الفكر الإسلامي أصولاً ثابتة ، ومعالم لا تتغير ولا تتحول عن المسار الصحيح لهذا الفكر ، وليس معنى هذا أن الفكر الإسلامي فكر مغلق ، ليس للعقل فيه مكان ، مثل هذا المعنى غير وارد على الإطلاق إلا في أذهان المعادين للفكر الإسلامي ، الذين يلتمسون أي شيء — ولو أوهاماً — لينالوا منه ، ويحطوا من قدره .

فالفكر الإسلامي ولد حياً ، وما يزال حياً ، وسرُّ حيويته : أنه فكر مرن متطور متجدد ، ولكن في إطار أصوله ومعالمه ، والاجتهاد مقرر ، غير منازع فيه ، لكي يتواءم الفكر الإسلامي مع تطور الحياة زماناً ومكاناً ، وإذا كان قد قدر له أن يغلق في فترات ، فإن مبعث ذلك ضعف الدولة الإسلامية ، وضعف العلماء تبعاً لها ..

* * *

إن قاعدة الفكر الإسلامي ، منطلق لأصلين جوهريين ، وهما يمثلان مضمون الإسلام ، وهذان الأصلان الجوهريان هما : دين .. ودولة .. أي أن الإسلام دين ودولة معا ، ولا انفصام بينهما ، وهذه بدهية وإحدى المسلمات ، وأية محاولة للفصل بينهما تؤدي إلى التجني على الفكر الإسلامي الأصيل ، وعلى طبيعة الإسلام ذاته ، ولسنا اليوم في حاجة إلى مناقشة هذه المسألة ، فقد قتلت بحثا منذ أصدر الشيخ علي عبد الرازق كتابه : « الإسلام وأصول الحكم » وهو من إحياءات المستشرقين ، والذين يرون أن أوربا لم تنهض إلا بعد أن فصلت الكنيسة عن الدولة ، ويتجاهلون أن طبيعة الإسلام غير طبيعة المسيحية ، وأنه على العكس ، فسُرّ تخلف المسلمين هو إبعادهم الإسلام عن الحياة ، والذين يرددون كاليبغاوات إشفاقهم على الدولة من « الحكومة الدينية » يتجاهلون — عن عمد — أنه لا كهنوت في الإسلام . وليس فيه ما يسمى بـ « الحكومة الدينية » .

والإسلام دينا : عقيدة وعبادة وسلوك .

أولا : عقيدة : جوهرها التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة الشرك الظاهر أو الخفي ، ثم الإيمان الصادق الذي يتجمل باليقين والثقة المطلقة في الخالق عز وجل ، ولقد ظل لعقيدة التوحيد الخالص صفاؤها ردحا من الزمن ، إلى أن أصابها ما أصابها من تسلل الأفكار الدخيلة عليها ، متخذة من « الصوفية » مطية لها ومنطلقا منها ، ولو قدر للسلف أن يبعثوا من مراقدهم اليوم أحياء ، لأنكروا علينا ما نحن فيه .

ثانيا : عبادة : جوهرها الصدق والامثال والإخلاص ، وليست هذه العبادة قاصرة على أركان الإسلام الخمسة : الشهادتين ، والصلاة والزكاة والصوم والحج .. بيد أن كل عمل يؤديه المسلم ، ينفع به نفسه ، أو مجتمعه ، أو وطنه ، هو عبادة ، وليس المطلوب — فحسب — أن تؤدي الفرائض كما ينبغي ، بل يجب أن نجيد توظيفها لتكون سبيلا إلى النهوض بالفرد والمجتمع والدولة ، نتجاوزها مع فلسفتها وحكمتها .

ثالثا : سلوك : وثيق الصلة بالعقيدة والعبادة ، وكلما كانت العقيدة سليمة ، والعبادة صحيحة .. كان السلوك سويا ، سواء في مجال الصلة بالله عز وجل ، أم في مجال الصلة بالمجتمع والدولة ، والعكس ، فكلما كانت العقيدة سقيمة ، والعبادة شكلا ، كان السلوك غير سوى ، فالذي يرى أن الله وحده الجدير بالعبادة ، لا يعبد سواه : مالا كان أم جاها ، والذي يعتقد أن الله وحده هو الضار والنافع ، والخافض والرافع ، لا يدين بالعبودية والخضوع لغيره ، يجهر بالحق لا يخشى في الله لومة لائم ، ولعله من أبرز أسباب تخلفنا نحن — المسلمين — هو أننا لا نربط بين العقيدة والعبادة ، وبين سلوكنا الديني وسلوكنا الاجتماعي .

والإسلام دولة : لا تنفصل عن الإسلام ديناً ، إنهما صنوان يخرجان من أصل واحد ..
لقد ظل الإسلام في مكة ثلاثة عشر عاماً لإرساء العقيدة لأنها أساس البناء ، وما إن استقر في
يثرب ، حتى شرع في تكملة البناء : ديناً ودولة معاً ، وبعد أن توافر للدولة كل أركانها : الأرض
والشعب والحكومة ، وهي نفس الأركان التي تتطلبها الدولة الحديثة ..

ولكن ما هي الأصول الفكرية للدولة الإسلامية ؟

يرى الأستاذ جمال البنا في دراسة له بهذا العنوان ، أن الأصول الفكرية للدولة الإسلامية
هي : الإيمان ، والعدل ، والشرعية ، ثم « الفرشولية » ، والاصطلاح الأخير : تركيب مزجي
من كلمتي الفرد والشمولية ، وهو يرى أن قضية الفرد في مواجهة الجماعة ، ذات أهمية خاصة
في كل النظم السياسية ، ولكن هذه الأهمية زادت في العصر الحديث ، حتى أصبحت المحور
الذي تدور عليه النظم ، ويميز نظاماً عن آخر (١) .

وما يراه الكاتب مجرد اجتهاد منه ، وتحديد الأصول بأربعة تحديد قد يكون جامعاً ،
ولكنه ليس مانعاً ، ويمكن اعتبار هذه الأصول خصائص ما عدا الأصل الأول « الإيمان » .

ويرى الشهيد « سيد قطب » أن العقيدة هي محور الأركان ، وقاعدة الأصول الفكرية
للدولة الإسلامية . فالقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام ، على مدار التاريخ البشري — هي
قاعدة : « شهادة أن لا إله إلا الله » أي أفراد الله — سبحانه — بالألوهية والربوبية ، والقوامة
والسلطان ، والحاكمية ، إفراده بها : اعتقاداً في الضمير ، وعبادة في الشعائر ، وشرعية في واقع
الحياة .

ومن ثم — كما يرى الكاتب — لم يكن بد من أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام — أي
العقيدة — في تجميع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي
الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغائه ، وأن يكون محور التجمع الجديد ، هو القيادة
الجديدة المتمثلة في رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ومن بعده في كل قيادة إسلامية
رشيدة (٢) .

وواضح أن الأستاذ « سيد قطب » يقتفى أثر جوهر الدعوة التي قام بها الإمام محمد بن
عبد الوهاب ، ولكن برؤية جديدة شاملة اقتضاها فارق الزمن وتطور الحياة ، ويقترّب من فكر
الإمام الشهيد « حسن البنا » ، والعلامة المودودي ، بينما كانت رؤية « حسن البنا » تتسم
بالشمول ، وجعل الفكر النظري سبيلاً إلى العمل التطبيقي ، فالمبادئ الأربعة التي قامت عليها
دعوة الإخوان المسلمين : الإسلام « دين ودولة ، ومصحف وسيف » تمثل الأركان التي يقوم
عليها البناء الإسلامي المتكامل ، والدولة جزء منه ..

ومما يؤسف له أبلغ الأسف : أن تراثنا من الفكر الإسلامي ، خال من دراسة علمية مستقلة عن الدولة ، وأن الفقه السياسي عند المسلمين — وهو كثير — غنى أكثر ما غنى بـ .. « الإمامة » أو « الخلافة » ومن خلال هذه القضية بدت معالم الدولة الإسلامية ، أي أنهم اهتموا بالجزء على حساب الكل ، ولا ينكر فضل علماء السلف ، فقد مهدوا لعلماء الخلف قدموا لهم المادة الخام ، حيث تولى مفكرو العصر الحديث تصنيعها وصياغتها ، وسدوا بذلك فراغا في المكتبة الإسلامية .

ولكن ما هي أهداف الفكر الإسلامي ؟

لا شك أن مهمة الفكر الإسلامي هي العمل على إيجاد « أيديولوجية » للإسلام ، محددة المعالم الرئيسية ، وإذا كان من المسلم به أن الإسلام دين مقيد إلى حد كبير بالنصوص ، وهذه النصوص إجمالية إلى حد كبير أيضا ، فهنا تظهر مهمة الفكر الإسلامي ، فهو الذي يتولى صياغة هذه النصوص وتفصيلها والإحاطة بفلسفتها ، ويفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ليؤكد مرونة الإسلام وقابليته دائما للتطور والتجديد .. وعلى سبيل المثال :

من المتفق عليه : أن المصدرين الرئيسيين للتشريع والأحكام هما كتاب الله وسنة رسوله ، ولكن آيات الذكر الحكيم قطعية الورود ، وليس كلها قطعي الدلالة ، والسنة ليست كلها قطعية الورود والدلالة ، والفكر الإسلامي يتدخل هنا في مجال الدلالة بالنسبة لكتاب الله ، وفي مجال الدلالة والورود بالنسبة لأحاديث الرسول ﷺ هذه ناحية ، وناحية أخرى :

فلقد استحدث الفكر الإسلامي تمشيا مع تطور الحياة زمانا ومكانا مصادر أخرى : كالإجماع والقياس ، والاستحسان والاستصحاب ، والعرف والمصالح المرسلة ، وغيرها . صحيح أن حول هذه المصادر التكميلية خلافا بين الأصوليين والفقهاء ، ولكن هذا الخلاف الذي لم يحل دون العمل بها ، ليس إلا ثمرة من ثمرات الاجتهاد ، حتى أصبح بعض الفقهاء يرى أنه في وقتنا الحاضر تعتبر مصادر التشريع ثلاثة : الكتاب والسنة والاجتهاد^(٢) ... أي الرأي .

ونحن نؤيد ذلك ، لأن المصادر التكميلية هي ثمرة اجتهاد العلماء والفقهاء ، والذي يقدر له أن يستوعب — ولو جزءا يسيرا من بحوثهم الاجتهادية ، يتأكد لديه : أن الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين ، قد بلغ مرتبة من السمو لا تدانيها مرتبة .

ويشير الدكتور محمد البهي — رحمه الله — إلى أن الفكر الإسلامي : « هو الذي يحافظ على قيمة الإيمان بالإسلام ، وقيمة المبادئ التي جاءت بها رسالة الإسلام للإنسان في حياته الفردية أو في مجتمعه مع غيره ... لذا فهو فكر مستمر لا يقف عند حقبة معينة من الزمن ، ولا عند مفكرين معينين في جيل من الأجيال »^(٣) .

ومن منطلق ما يراه المفكر الإسلامي الراحل : الدكتور محمد البهي ، أقول :

إن مهمة الفكر الإسلامي اليوم في المواجهة مع أي فكر معاد له سواء أكان فكرا مختلا انبثق من عقليات مريضة تنتمي إلى الإسلام بحكم شهادات المواليد ، أم فكرا متطاولا ومستوردا ، له عملاؤه من ضعاف الإيمان في ديار المسلمين ، ويستطيع أن يحقق هذا الهدف الأسمى ، متى قيض الله له مفكرين على مستويات تليق بأصالة هذا الفكر ، وإن هذه المهمة لا تحتاج إلى وعاظ يملكون حناجر قوية ، ولا إلى خطباء منابر يحملون سيوفا خشبية .. ولكنها تحتاج إلى عقول راجحة ، وآفاق واسعة ، وقدرات على المحاجة بالمنطق .

* * *

الفكر الإسلامي : المنابع

عندما نقول : « الفكر الإسلامي » لا يدور في أذهاننا إلا معنى واحد ، هو أن المقصود بـ « الفكر الإسلامي » أنه التعبير عن الإسلام بكل شموله وعموميته ، في العقيدة والشريعة ، والسياسة والاجتماع ، والتربية والأخلاق ، ولا يمكن بحال الفصل بين الإسلام والفكر الإسلامي ، إلا إذا أمكن الفصل بين الجسد والروح في كائن حي .

لكن الأستاذ « محمد قطب » يرى رأيا آخر ، يرى : أن للإسلام فكرا — أي تصورا — وأن للإسلام نظاما ، ولكنه لا ينبغي أن نتحدث عن الفكر الإسلامي مجردا ، ولا عن النظام الإسلامي مجردا ، وإنما نتكلم عن الإسلام في حقيقته الربانية ، إنه عقيدة .. عقيدة ينبثق منها تصور فكري ، وعقيدة ينبثق منها نظام ، ولكنها ليست فكرا خالصا ، ولا نظاما مستقلا »^(١) .

ربما كان رأي الكاتب — على غرابته — من باب الاحتياط ، حتى لا يتحمل الإسلام مسؤولية أي فكر ينتمي إليه ، ولكننا بصدد الفكر الإسلامي المعبر تعبيرا صحيحا عن الإسلام ، ولا شك أن رأي الكاتب قد يثار لو كنا بصدد نوعيات الفكر ، فنحن مثلا لا نعتبر الفكر الصوفي أو الفكر الشيعي ، أو فكر الخوارج ، أو فكر المعتزلة ، فكرا إسلاميا يعبر عن الإسلام ، بل مجرد تصور .. لا أكثر ..

ولكن : ما منابع الفكر الإسلامي ؟

يقول الدكتور محمد البهي في كتابه : « الفكر الإسلامي في تطوره » « الفكر الإسلامي هو : المحاولات العقلية من علماء المسلمين ، لشرح الإسلام في مصادره الأصلية : القرآن والسنة الصحيحة » .

فهل يعني أستاذنا — رحمه الله — أن مصادر الفكر الإسلامي هي ذات مصادر التشريع الإسلامي ؟ لا أظن ذلك .. لأن التشريع أحكام مقيدة بالنصوص ، أما الفكر الإسلامي ، فهو — كما يقول الدكتور — محاولات عقلية لشرح الإسلام في إطار مصادره الأصلية .

وما دام الفكر الإسلامي إزاء دوافع وأسباب يعمل في مجال المحافظة على الطابع الإسلامي : إقداما ودفاعا معا ، فلا بد أن يكون العقل أحد مصادر هذا الفكر ، فالأحكام تصدر عن النصوص ، ولكن ما يصدر عن الفكر هو الرأي ، والرأي ثمرة العقل .

وليس معنى هذا أن نترك الحبل على غاربه للعقل ، فهو مقيد — من ناحية — بالتجرد عن الهوى — ومن ناحية أخرى — مقيد بالتزام النص متى كان قطعي الدلالة والورود .

ومن هنا كان مجال الفكر الإسلامي أكثر اتساعا من مجال الأحكام التشريعية ونرى الدكتور البهي في كتابه السابق ، يشير إلى ذلك فبعد أن وصف الفكر الإسلامي بأنه المحاولات العقلية لشرح الإسلام في مصادره الأصلية : القرآن والسنة الصحيحة ، قال إن مجالات هذا الفكر تكون : (أ) إما تفقها واستنباطا لأحكام دينية في صلة الإنسان بخالقه في العبادة .. أو في صلة الإنسان بالإنسان في المعاملات .. أو لمعالجة أحداث جدت .. أو ..

(ب) وإما توفيقا بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر أجنبية دخلت على الجماعة الإسلامية من جانب آخر ، بعد أن قبلت — أي الجماعة — هذه الفكر كمصدر آخر للتوجيه .

(جـ) أو دفاعا عن العقائد التي وردت فيه ، أو ردا لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منزلة في الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر ..

إلى غير ذلك من الدوافع والأسباب التي تدعو إلى إعمال الفكر في المحافظة على الطابع الإسلامي كما يراد له أن يكون ، أو يبقى ذا صيغة إسلامية .

ومن ناحية أخرى :

إن مصادر التشريع : الأصلية والتكميلية هي المجال الطبيعي لتشريعات الأحكام ، ولا غنى لها عن العقل ، كما أن العقل هو المجال الطبيعي للفكر الإسلامي ، ولا غنى له عن مصادر التشريع .

ونضيف إلى ذلك :

إذا كانت مصادر التشريع هي المكونات لبناء الإسلام : دينا ودولة ، عقيدة وشرعة ، نظاما وسلوكا ، فإن الفكر الإسلامي هو حارس هذا البناء ، والإشعاع الذي ينطلق منه إلى الآفاق على أيدي دعاة الإسلام من علمائه ومفكره .

* * *

وخلص القول :

إن منابع الفكر الإسلامي ، تتسع لمصادر التشريع ، ولكنها لا تقف عند حدودها ، بل تتجاوزها إلى منبع أصيل هو الرأي ، والرأي ثمرة الاجتهاد ، والاجتهاد ثمرة التفكير ، والتفكير ثمرة العقل .

ثم إن هذا الدين — كما يرى الشهيد « سيد قطب » : منهج إلهي للحياة البشرية يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقاتهم البشرية ، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة ^(١) .

ونضيف نحن إلى كلمات الشهيد :

إن الفكر الإسلامي — في إطار من منابعه — هو الذي يتولى — أولاً — صياغة هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة البشرية ، وثانياً — هو الذي يتولى تحريك المنهج ، وقيادة مساره ، ليحقق أهدافه .

* * *

المبحث الثاني :

في إطار المسار

* بداية مراحل التداخل .. وبلا نهاية

* المقاومة المتأنية

بداية مراحل التداخل .. وبلا نهاية

ظل الفكر الإسلامي طيلة عصر النبوة وخلافتي أبي بكر وعمر ، وقدر من عهد عثمان .. سليما معافى ، كان وجود الرسول ﷺ حيا بين أظهر أصحابه ، وكان حزم كل من أبي بكر وعمر ، حائلا دون أي تسلل لفكر دخيل إلى الفكر الإسلامي ، يضاف إلى ذلك : اشتغال المسلمين بحروب الردة في عهد أبي بكر والفتوحات الإسلامية في عهد عمر . أو كما يقول الدكتور محمد البهي في مؤلفه السابق : « الفكر الإسلامي في تطوره » : كان الوقت مشغولا بنشر الدعوة ، وتمكين الجماعة الإسلامية من الاستقرار ، وإرساء الحياة الإسلامية فيها على مبادئ القرآن والسنة الصحيحة : بالتطبيق العلمي لوصايا الإسلام .

لقد بدأ التداخل ينبثق من داخل بعض المسلمين ، ربما كان بسبب عدم استقامة في التفكير أو بسبب ضعف الإيمان في النفوس أدى إلى تحلل من الالتزام بكتاب الله القائل في سورة النساء : الآية ٥٩ .

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

لقد بدأ الخلاف عقيدا وفكريا ، ثم استثمرته السياسة بعد ذلك لمصلحتها وكان عمل الموالى رئيسيا في إذكاء نار هذا الخلاف ، كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله عليه : « لقد نبتت هذه الفرق وترعرعت ، وآتت أكلها في العراق وفارس وقاد كل حركاتها الموالى الذين كانوا قواد الحركات العلمية ، وأصحاب البذء من الأفكار ، والجديد من النزعات .. وحيثما رأيت نحلة في الإسلام ، أو مذهبا فيه حديثا ، فاعلم أن نابتة نبت في رؤوسهم ، عنهم صدر ، وإليهم يعود ^(١) .

بعد سنوات ست من خلافة عثمان ، بدأت الفتنة تشق لنفسها طريقا ، حتى قتل — رضي الله عنه ظلما ، واختلفوا بعد قتله في قاتليه وخاذليه اختلافا باقية آثاره مدى طويلا من الزمان .

ثم اختلفوا بعد ذلك في شأن علي وأصحاب الجمل ، وفي معاوية وأهل صفين .. ثم حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدريّة في القدر والاستطاعة ، من « معبد

الجهني « المتوفي عام ٨٠ هـ على الأرجح . وقد تبرأ من القدرية المتأخرون من الصحابة .
ثم اختلفت الخوارج فيما بينهم فصارت مقدار عشرين فرقة ، كل واحدة منها تكفر
سائرهما .

وحدث ما شئت عن فرق الشيعة والمعتزلة ، والروافض الذين قال غلاتهم بالوهمية الأئمة ،
وأباحوا محرمات الشريعة ، وأسقطوا وجوب فرائضها ^(٨) .

ومن شاء المزيد فدونه الكتب من التراث التي دوت عن هذه الفرق التي أحدثت شرخا
في بناء الإسلام ، مثال : الملل والنحل للشهرستاني ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن
حزم ، ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ثم الفرق بين الفرق للإسفرائيني ، ومن الكتب
الحديثة : تاريخ الجدل والمذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة .

وأود أن أقول :

إن بداية اقتحام الفكر الدخيل محراب الفكر الإسلامي الأصيل ، كانت بداية مبكرة للغاية ،
ولقد دفع الإسلام ومعه أمتة الثمن غاليا فيما مضى ، وما يزالان حتى اليوم يدفعان الثمن غاليا ،
نتيجة للخلاف الذي دب بين صفوف الجماعة الإسلامية ، من خلال فكر منحرف ، فسالت
دماء غزيرة بريئة ، وتصدعت وحدة المسلمين .

وفي القرن الثالث الهجري ، بدأ التدخل بفكر وارد من خارج الجزيرة العربية ، من فارس
والهند واليونان ، بفكر منحرف ، وجد سبيله ميسراً إلى الفكر الإسلامي الأصيل ، عن طريق
التصوف ، حيث طفت على السطح النظريات الإلحادية مثال : الحلول ، ووحدة الوجود ، وحيث
فرغت فرق الباطنية سمومها في عقيدة السلف .

يعرض الشيخ أبو زهرة — رحمه الله في مؤلفه : « تاريخ الجدل » عن افتراق الأمة ، ويرى
أن من أبرز أسباب هذا الافتراق :

« التنازع على طلب الخلافة والملك ، دخول طوائف كثيرة في الإسلام ، من أصحاب
الديانات القديمة ، والملل والنحل ، مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة أيضا ،
وسريان كثير من أفكار أولئك إلى المسلمين ، خصوصا من لم يكن ثابت العقيدة ، فقد تسللت
آراء بعض فرق اليهود إلى المعتزلة والرافضة ، محاولة أعداء الإسلام إفساد الأمر بين المسلمين ،
من أمثال الزنادقة والقرامطة ، حيث كانوا يعملون — مطمئنين ، مستظلين بلواء الإسلام الذين
ينتمون إليه — ثم ترجمة الفلسفة الأجنبية أواخر العصر الأموي وخلال العصر العباسي ، حيث
ظهر فيه أقوام شكيون يتزعون في الشك منزع السوفسطائية الذين ظهروا في اليونان والروم ..
فكان كل ذلك ضِعْفاً على إِبْالة : أضاف إلى أسباب الخلاف أسباباً أقوى وأشد خطراً .

وخلص القول :

إن التدخل الذي طرأ على الفكر الإسلامي ، والذي بدأ مبكراً قد أثمر ثماراً مريرة ، ونحن لا نعرض لتاريخه — وقد مضى — لتتجرع كؤوس الأسى الممرض لأن النواح على الأطلال لا يجدى ، ولا نأخذ العبرة مما حدث لأننا نحن — المسلمين — اليوم ، قد تجمدت أحاسيسنا ، ولم نعد مستعدين للاعتبار ، وحالنا خير شاهد على ذلك .

والمسألة — إذن جد خطيرة :

إن رواسب الفكر المنحرف الذي سبق أن أثقل كاهل الفكر الإسلامي الأصيل ، هذه الرواسب امتدت جذورها حتى يومنا هذا ، تتحدى الإسلام عقيدة وشريعة ونظاماً .. والضحية الشباب المسلم ، الذي أصبح تائها بين الحقيقة والوهم .

* * *

المقاومة المتأنية

أجل : لقد كانت مقاومة الفكر المنحرف ، والفكر الدخيل متأنية تسير وتتحرك على قدر من الاستحياء .

وإلا .. لماذا ارتفع هذا النبت الخبيث ، واشتد عوده حتى أثمر وأينع ، وتفتأ بعض المسلمين ظلاله ؟

ولماذا اشتد ساعد تلك الفرق ، واستطاعت أن تدخل في معارك مع الدولة الأموية ، ثم الدولة العباسية ، بل إن بعض هذه الفرق أقام دويلات داخل الدولة الأم ؟

لو أن هذه الشجرة الخبيثة قد اجتثت من جذورها بمجرد بروزها على سطح الأرض ، إبان فتنة عهد عثمان .

أجل .. لو أن الفتنة قد أخمدت بمجرد أن أطلت بقرنيها .. لما حدث ما حدث .

صحيح أن علياً قد تصدى للخوارج والسبئية والروافض ، واستطاع أن يخضد شوكتهم العسكرية ، لكن فكرهم ظل باقيا .

وصحيح أن معظم الفرق قد ظهر في العصر الأموي ، وصحيح أن السلطة في دولة الأمويين قد تصدت لها ، ولكن هذا التصدي لم يكن جادا حازما إلا حين تصطدم تلك الفرق بالسلطة ، حفاظا على هبة السلطة .

لقد تركت مدرسة الحسن البصري المتوفى عام ١١٠ هـ وحدها تقريبا تصدى لنزعات الهوى لدى الفرق التي خرجت على صراط الله السوي ، واتبعت السبل ، وعلى الرغم من أن كثيرا من تلك الفرق انبثق من مدرسة الحسن البصري وخرج عليها ، وحسبنا أن مؤسسي مذهب الاعتزال كانا من هذه المدرسة ، وهما : واصل بن عطاء المتوفى عام ١٣١ هـ وعمر بن عبيد المتوفى عام ١٤٢ هـ . بل وعلى الرغم من أن نزعة الزهد التي اتسمت بها مدرسة البصري ، قد كانت سببا في وضع اللبنة الأولى للتصوف الذي شمع بنيانه في القرن الثالث الهجري .. إلا أن هذه المدرسة — والحق يقال — قد أدت واجبها دون أدنى مساعدة من السلطة التي لم تكن مشغولة إلا بنفسها ومشكلاتها .

ابتداء من أواخر العصر الأموي، وامتدادا إلى العصر العباسي، بدأت الفرق الإسلامية تأخذ شكلا تثبت فيه وجودها ، فإلى جانب المذهب الشيعي الرسمي للدولة الإدريسية ، برزت « الجبرية » ومؤسسها جهم بن صفوان الذي ظهر « بخراسان » ، وقتل في آخر عهد بني أمية ، والمرجئة ، والباطنية وغيرهما .

أضف إلى ذلك نزوح العقائد والفلسفات القديمة إلى ديار الإسلام في عهد العباسيين : الزرادشتية ، والمناوية ، والهندوكية ، ومن الفلسفات : الأفلاطونية ، وغيرها .

فماذا كان موقف الفكر الإسلامي من هذه وتلك ؟

كان هناك جدال شبه مرير بين مدرسة الحديث في الحجاز ، ومدرسة الرأي في العراق ، جدال لم تكن الحاجة ماسة إليه ، وبخاصة والفكر الإسلامي الأصيل محوط بطوفان من تحديات الفكر الدخيل ولست أعني الإقلال من شأن هاتين المدرستين .

وانشغل بعض العلماء بالفقه الإسلامي ، ثم بتدوين الحديث ، وهذا عمل لا غبار عليه ، ولكنه كان يجب ألا يكون حائلا دون التصدي للفكر الدخيل ، وبخاصة أن أئمة الفقه شغلوا أنفسهم بالجدل في الفروع .

نحن لا ننكر أن بعض العلماء تفرغ للتصدي لأي فكر منحرف ، مثال : « الحسن البصري » ١١٠ هـ و « الأشعري » ٣٢٤ هـ وله « مقالات الإسلاميين » والباقلاني ٣٠٣ هـ وله « كشف أسرار الباطنية » ، ثم الغزالي ٥٠٥ هـ وله « فضائح الباطنية » وغيرهم .

إلا أن هذه كانت محاولات فردية ، لم تستطع وقف طوفان الفكر المنحرف وبخاصة طوفان التصوف الذي احتضن بعض النظريات الهدامة مثال : « نظرية الحلول » وصاحبها الحلّاج : « الحسين بن منصور » الذي قتل شرعا عام ٣٠٩ هـ وينحدر من آباء زرادشتيين ، وكان على صلة وثيقة بالقرامطة ، ونظرية « وحدة الوجود » والقاتل بها « أبو زيد البسطامي » المتوفى عام ٢٦٠ هـ وهو أيضا ينتمي إلى أصل « زرادشتي » ثم روجها من بعده كثيرون ومن أبرزهم « ابن عربي » وغيره ، والذي يدعو إلى الأسف أن أهل الزيغ هؤلاء ما يزالون يعيشون بيننا بأفكارهم ، ويجدون من يدافعون عنها من الذين ينتسبون إلى علماء الدين .

وأكرر القول :

إن طوفان الفكر المنحرف ، سواء منه ما كان ملتصقا بالفكر الإسلامي صراحة أو تأويلا ، أم ما كان متحديا تحديا سافرا للفكر الإسلامي ؛ هذا الطوفان كان أكبر حجما وأبعد أثرا من المقاومة ، تلك التي اتسمت في معظم الأحوال بالتراخي والتأني .

صحيح أن المعتزلة كانت الدولة العباسية تحتضنهم ، فقويت شوكتهم ، وتصدى لهم الإمام

أحمد بن حنبل وحده ، ولم يشد عضده إلا قلة من العلماء بمجرد الدعوات والإنكار بالقلب ..
أضعف الإيمان ، إلا أن بقية الملل والنحل الخارجة ، كانت حربا على الدولة ، ولقد استطاعت
أن تحتفظ بقوتها سياسيا وعقائديا مدى طويلا من الزمن ، وقد انتهت سياسيا باستثناء الشيعة ،
وما يزال الكثير منها باقيا عقائديا .

حسب القارئ أن يرجع إلى كتب التاريخ ، ليعرف — فحسب — ما فعله القرامطة ، دع
عنك ما فعلوه من تقتيل وتخريب في الشام ، وفي الكوفة وغيرهما ، وإليك ما فعلوه سنة ٣١٧ هـ
في يوم التروية بمكة ، حيث هاجموا البيت الحرام وسفكوا دماء من فيه ، وقتلوا أمير مكة ،
وخلعوا باب الكعبة ، وحملوا معهم الحجر الأسود .

وخلاصة القول :

وإذا كانت المقاومة فيما مضى قد اتسمت بالتأني والتراخي ، فإنها في العصر الحديث أكثر
حية عقيدا وفكريا .

وإذا كانت المقاومة فيما مضى اتسمت بالتأني والتراخي ، فإنها في العصر الحديث أكثر
تأنيا وتراخيا ، وهناك سببان :

الأول : أن علماء الدين — إلا أقلهم ، لا يتصدون إلا بإيحاء من السلطة .. وبذلك تفقد آراؤهم
قيمتها .

الثاني : أن السلطة — ما لم تمس سياستها — لا يهتمها انتشار الأفكار الهدامة ، ولو كانت
تستهدف الإسلام نفسه .

* * *

المبحث الثالث

مع الفكر الإسلامي الحديث

- * المفاهيم في الميدان
- * بين الفكر المعتدي والفكر المستورد

المفاهيم في الميدان

إن للفكر الإسلامي مفاهيم لها ذاتيتها واستقلالها ، قد تتطور مصطلحاتها تبعاً لتطور الحياة ، ولكن مضامينها تظل ثابتة ، وإلا تلاشت القاعدة التي تؤكد أن الإسلام من المرونة بحيث تستوعب أصوله تطور الحياة مكاناً وزماناً ، وهذه القاعدة منبثقة من قاعدة : أن رسالة الإسلام خاتمة الرسالات ، بمعنى أنها يجب أن تكون صالحة للحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والسؤال الذي يفرض علينا نفسه :

ما القيمة الحقيقية للفكر الإسلامي المعاصر ؟

إن الإجابة على هذا السؤال — الذي قد ينزعج له البعض — هي أن هذا الفكر قد ينتمي إلى الفكر الإسلامي شكلاً ، ولكنه لا يمت إلى الفكر الإسلامي الأصيل بصلة ، كما وكيفاً معاً .

وأتحفظ وأقول : إن هذا الحكم المثير ، ليس على إطلاقه ، لأنه ما يزال لدينا بقية من الفكر الإسلامي الأصيل ، ومفكرون إسلاميون على مستوى رفيع ، ولكن لهم الكثير من التقدير ، منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ولكن الذي يدعو إلى الأسف : أن هذا الفكر الأصيل السمين ، يتوه في خضم الفكر الهزيل الغث ، الذي ينتمي إلى الإسلام على رغم منه . والسبب هو تفشي الأمية الدينية والثقافية ، لدى جماهير الشعب المسلم ، لا فرق بين جاهل بالقراءة والكتابة وبين حامل لشهادة متوسطة أو عليا ، فقد قرأت في كتاب صوفي لشيخ أمي ، وفيه يقول أحد الأولياء المزعومين : « نحن معاشر الأولياء .. نخوض بحراً يقف الأنبياء على ساحله » والمصيبة أن مروجي هذا الكتاب — الذي صودر في مصر — كانوا من الجامعيين ، ومن هذا المنطلق نرى الكتب الصوفية — على ما تتضمنه من خيل وشطحات وخرافات — أكثر رواجاً من الكتب التي تتضمن فكراً إسلامياً أصيلاً .

ولا جدال في أن عقيدة السلف هي العقيدة الصحيحة ، ولكننا إذا استثنينا السعودية — فإن نسبة الملتزمين بها إلى نسبة المفرطين فيها ، نسبة تبعث على الأسى ، ولا تسئل : أين علماء الدين ؟ لأن معظمهم غير ملتزمين ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

* * *

والمشكلة تعود إلى عدة مراحل :

أولاً : اضطراب المفاهيم الإسلامية ، فلقد أصبح الفكر الإسلامي المعاصر — تجاوزاً — بلا ضوابط ، وأقصد بالمفاهيم الإسلامية ، تلك المفاهيم التي تتبنى قضايا عامة تمس الإسلام وحياة دوله وشعوبه .. وحسبنا على سبيل المثال — لا الحصر — « الاشتراكية » و « الرأسمالية » كلتاهما تدعي تحقيق العدل الاجتماعي ، فعلماء الدين في الدول المسلمة التي تدين بالولاء لموسكو يقدمون مفهوماً لهما ، غير ذلك المفهوم الذي يقدمه علماء الدين في الدول التي تدين بالولاء لواشنطن ، وفي مصر — قبل حركة الجيش في يوليو عام ١٩٥٢ م ، كانت الاشتراكية خروجاً على الإسلام ، وصدرت فتاوى هيئة كبار العلماء بذلك ، وبعد يوليو ١٩٥٢ م حين أصدر « جمال عبد الناصر » قوانينه الاشتراكية ، أصبحت الاشتراكية من صميم الإسلام . إلى درجة أن شيخاً بكلية الشريعة بالأزهر قال في حديث مذاع : إن محمداً ما جاء إلا ليمهد للاشتراكية .

ثانياً : القصور .. والتقصير : وهذا ، بالنسبة لعرض المفاهيم الإسلامية الصحيحة ، أو لتصحيح المفاهيم السقيمة ، والمسؤولية — بالطبع — مسؤولية علماء الدين والمفكرين الإسلاميين ، وأعني بالقصور : القصور في البحث والاستيعاب . فلدينا طاقة متواضعة ، وحصيلة أكثر تواضعاً ، كان العقاد — رحمه الله — يقول : « العلم هو القراءة .. ولقد أصبح كثير من الكتاب يكتبون أكثر مما يقرؤون » والذي يقرأ « لجون جنتر » الكاتب الأمريكي كتابه : « في داخل أفريقيا » يصاب بالدهشة ، حين يجد أن أحد المبشرين المنتشرين في القارة السوداء عاش في دولة أفريقية بضعة عشر عاماً ليؤلف كتاباً عن تلك الدولة .

وأعني بالتقصير : تقصير بعض العلماء والمفكرين ، القادرين على العطاء بسخاء ، ولكنهم لا يفعلون : إما يأساً ، وإما انشغالا بالحياة ، وأسوأ من هؤلاء وأولئك ، الذين يستعرضون عضلاتهم في سفاف المسائل ، ويتفاوضون — عن عمد — عن القضايا الحيوية ، وبخاصة إذا كانت السلطة طرفاً فيها ، ولا يهم أن يكون الإسلام هو الطرف الآخر .

ثالثاً : مشكلة التراث : ومشكلة التقليد :

إن رفض تراث الفكر الإسلامي برمته أو قبوله برمته أيضاً ، أمر غير وارد على الإطلاق ، فالتراث جزء من التاريخ ، والتاريخ — أي تاريخ — يتضمن صفحات مشرقة وأخرى معتمة ، وكذلك التراث فيه الغث ، وفيه السمين ، والمنطق يدعونا إلى أن نهمل الغث ، ونأخذ من الجيد ما نحن في حاجة إليه لحياتنا المعاصرة .

ومما يبعث على الأسف : أن البعض يتوهم أن دعوتنا إلى مراجعة التراث وتنقيته ، هي بمثابة التنكر له ، ويجدر بنا في الرد على هؤلاء أن نتساءل :

هل يفرض علينا تراثنا برمته تقديسه ، لا لشيء إلا لأنه نتاج فكري لسلفنا ؟

إن الإجابة بنعم .. معناها أن نلغي عقولنا ، ونحكم على الفكر الإسلامي بالجمود ، ونفتح المجال واسعا للتقليد ، وهذا ما لا يقبله إنسان عاقل ، حسبنا أن نقول : إن الإمام « مالكا » لم يستجب للخليفة ويعلق كتابه الموطأ على الكعبة لكي تلتزم الأمة المسلمة به ، وكانت حجته : أن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين تفرقوا في عصر الأمصار ، وتركت آراؤهم — التي اختلفت بصماتها في أذهان الناس .

وقد يقال : لماذا أصر « مالك » إذن على اعتبار عمل أهل المدينة مصدرا من مصادر الاستدلال ؟

ونقول : إن رأي مالك مجرد اجتهاد منه ، كانت له مبرراته عنده ، وقد خالفه الفقهاء ، ورد عليه الإمام « الليث بن سعد » من مصر ، وألف « محمد بن الحسن الشيباني » كتابه في الرد عليه « الحجة على أهل المدينة » بل إن « الشافعي » خالف « مالكا » ، مع أنه تلقى الفقه والحديث عنه .

إن فكرة إهمال تراثنا جملة وتفصيلا — كما قلت — غير مطروحة ولا واردة على الإطلاق ، لأنه ما من أمة — تحترم نفسها — تفكر في أن تنفصل عن ماضيها — أما الفكرة المطروحة والواردة ، فهي فكرة « إحياء التراث » ومفهوم الإحياء هنا ، يعني إحياء ما هو جدير بالإحياء ، لأن من التراث ما هو جدير به أن يودع المتاحف أثرا من آثار تاريخنا الفكري .. بل الأمر أبعد من ذلك ، وهو أن إحياء ما هو جدير بالإحياء ، لا يتوقف على مجرد التحقيق والطبع والتوزيع — كما يرى الدكتور أحمد أبو زيد — فهو يرى : أن المهم هو الذي نفتقر إليه ، هو العمل على نقل « أو ترجمة » التراث إلى اللغة الحديثة السائدة بين أوساط المتعلمين كوسيلة أولى لتقريب التراث وإدخاله إلى حياتنا الفكرية ، كي يصبح جزءا عضويا من تفكيرنا ، حتى يلتحم مع بقية مكونات الثقافة العربية المعاصرة ، بنفس المعنى الذي التحمت به الأعمال التراثية في الغرب بالثقافة العلمية الحديثة المتطورة^(٩) .

ويرى الدكتور « محمد إبراهيم الفيومي » عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية — جامعة الأزهر — أن محور المناقشة هنا هو : « التراث والمعاصرة » إنها قضية أساسية تعني : « العودة إلى الأصالة كنوع من أشد أنواع الانتماء الإنساني » على أنه في المقابل لها تقف مسألة « المعاصرة » فهل نحن — حقا — معاصرون بقدر ما نحن متممون إلى أصالتنا ؟ أم نطلق من

فراغ ؟ ، وهل تعني المعاصرة أن ندخل العصر مجردين من تراثنا العربي والإسلامي ؟

وهل تعني العودة إلى التراث : التشبث بكل الموروث الحضاري ؟

« إننا كأمة عربية مسلمة يليق بنا أن نصل أسباب تقدمنا بأسباب أصولنا العرقية والفكرية .. على ألا يتحول هذا الموروث العظيم إلى « صنم » نتحجر أمامه ، أو نحرق له البخور ، جامدين في أماكننا لا نريم .. فالتراث حركة متجددة مشعة ، ومضيئة في الأجيال إذا أردنا » ^(١٠) .

وما يقوله الدكتور « الفيومي » حق . وأرى أن القضية تتضمن أول ما تتضمن : رفع الحصانة عن التراث ، وإجلاء القداسة عنه ، وليس هذا ابتداء ، لأن مسار التاريخ يشهد بأن كل فكر خضع للنقد ، ولم يدر بخلد عالم من السلف — كائنا من كان هذا العالم — أن يعتبر رأيه ملزماً .

أما الأمر الثاني ، فهو الاعتراف بقيمة تراثنا الفكري ، وبأنه ثروة لا تقدر بثمن ، ولكن فيها الغث وفيها السمين ، ومهمة الخلف أن يفيدوا من هذه الثروة بأن يحسنوا استثمارها — أما من أين نبدأ ؟ وكيف نعمل ؟ فلا مشكلة : إذا خلصت النوايا ، وصدقت الغرائم ، وخلصت العقول من ربة التزمّت والتقليد .

ولا شك أن حالة الفوضى والاضطراب التي يعيشها الفكر الإسلامي المعاصر — وبلا ضوابط — قد أدت إلى بزوغ ما سمي بظاهرة « التطرف الديني » وما انبثق عنها من أفكار التكفير « والهجرة » ثم إلى ما تسمى باليسار الإسلامي .. إنها مسائل ثلاث شغلت الرأي العام الإسلامي — وما تزال تشغله ، وبخاصة في أوساط الشباب المسلم المتدين الذي خلصت نواياه ، وسقمت تفكيراته وأفكاره تبعاً لذلك .. إلا القليل منها .

وأود بادئ ذي بدء ، وقبل أن نعرض لهذه المسائل الثلاث ، أن أقول : إن عبارة « التطرف الديني » اسم على غير مسمى ، أو ألفاظ بلا مدلول ، لأن الإسلام دين وسط ، ولا يصح أن ينسب التطرف إلى الدين ، كما لا يصح أن يوصف الدين بالتطرف ، إنما ينسب التطرف إلى التفكير ، ويوصف التفكير بالتطرف .

وناحية ثانية : أن السلطات ومن ورائها وسائل الإعلام ، وبعض الألسنة والأقلام التي تدور في فلکها ، إنما تناقش الأمور من رؤوسها ولا تبدأ بمناقشتها من جذورها ، أي أنها تناقش الأحداث ، ولا تناقش الدوافع ، وفي رأيي أن هناك دوافع ثلاثة رئيسة وراء التطرف المسمى بالديني :

أولاً : أن الشباب المسلم عايش الكبت العنيف مقابل الترف في الحرية المطلقة التي تتمتع بها

السلطات ، وبخاصة في صناعة الاتهامات وصياغتها . كما عايش من ألوان التعذيب الجسدي والنفسي خلف الأسوار ، ما يفوق ما حدث في محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، وأدى إلى إنكار الشباب للمجتمع ووصفه بالجاهلية ولم تأخذ السلطات — وما تزال — بالأسلوب الصحيح : الحوار مع الشباب في الهواء الطلق ، لأن تعاليمها وكبرياءها حالاً دون ذلك .

ثانياً : أن هذا التطرف كان نتيجة حتمية للفراغ الذي تركته دعوة الإخوان المسلمين ، وقد عجز علماء الدين ووسائل الإعلام عن سد هذا الفراغ ، بالإضافة إلى عدم الثقة في العلماء الرسميين ، ومن باب أولى ، وسائل الإعلام الرسمية ، وكان أن اضطر الشباب المسلم المتدين إلى الاعتماد على أنفسهم ، دون أن يكون لديهم رصيد بفق الإسلام كاف لمناقشة آراء المفكرين الإسلاميين القدامى والمحدثين معا .

ثالثاً : أن الأحكام — إزاء أي حادث من الأحداث ، يكون المتهم فيه الشباب المسلم — تصدر من طرف واحد ، هي السلطة بأجهزة أمنها ، ووسائل الإعلام مجبرة على الإدانة قبل صدور الأحكام ، أما القاعدة القانونية المعروفة « المتهم بريء حتى تثبت إدانته » فلا يقام لها وزن ، وإذا نحن التمسنا عذراً لوسائل الإعلام الرسمية ، لأنها لا تملك إرادتها فكيف نلتمس عذراً لبعض علماء الدين ، عندما يشايعون وسائل الإعلام ، مؤيدين الاتهامات بآيات من القرآن وأحاديث من السنة ، قبل أن يبدأ التحقيق ، وقبل أن يقول الدفاع كلمته ، وقبل أن يصدر القاضي أحكامه .

هذه هي الدوافع الثلاثة الرئيسة ، على سبيل المثال — لا الحصر — وربما كان مثل هذا الكلام غير متوقع ، لأنه غير وارد في أذهان الناس ولكنه الحقيقة ، وأن نصارح أنفسنا ونواجهها بالحقيقة خير ألف مرة ومرة من أن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام .

بقي أن نعرض في إيجاز لمسائل : « التكفير والهجرة ، واليسار الإسلامي ، وأرجو أن تكون الكلمات بلا حرج وبلا استحياء ، فقد سبق أن قلت : إن هذا الشباب المسلم المتدين حسن النوايا ، ولم يكن حسن التفكير ، دائماً كان قبل أن يزج به إلى المعتقلات شباباً بريئاً يقوم بالتبليغ عن الإسلام في هدوء ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وفي حدود بيوت الله ، دون أن يمس السياسة من قريب أو بعيد .. وقد عرفت غالبية قبل أن يكونوا معنا خلف الأسوار سنوات ستاً حسوماً ، وما رأوه خلف الأسوار ، مما يعتبر انتهاكاً صارخاً لآدمية الإنسان ، حملهم على أن يكونوا شيئاً آخر ، يعرف الجميع دلائله ومدلولاته ونتائجه .

« مسألة التكفير » :

هذه المسألة — بلا شك — أخطر المسائل الثلاث ، وأبعدها أثراً ، وهي مسألة لها

جذورها ، منذ فتنة مقتل عثمان الخليفة الثالث ، واستفحل داؤها في فكر الخوارج ، حيث كان لتأويل النصوص — كتابا وسنة — الأثر الرئيسي .. ثم في فكر الروافض ، ومؤسس هذه الفرقة هو اليهودي « عبد الله بن سبأ » ، الذي غالى في علي — رضي الله عنه — وادعى له الألوهية ، وزعم أنه لم يقتل ، والذي قتله عبد الرحمن بن ملجم ، كان شيطانا تمثل في صورة علي ، أما علي ، فقد رفعه الله إليه كالمسيح « عيسى بن مريم » — عليه السلام .

ولم يكن عجيبا أن هذه الفرقة الضالة التي أحرق « علي » بعض أتباعها ونفى زعيمها — الذي تولى كبر إثمها « ابن سبأ » — إلى المدائن — قد افرقت فرقا كثيرة ، كل فرقة منها تكفر سائر الفرق الأخرى . كما افرقت الخوارج عشرين فرقة ، كل فرقة منها أيضا تكفر سائر الفرق الأخرى .

وبرغم أن الخوارج يجمعون على تكفير « علي » و « عثمان » ، وأصحاب الجمل والحكمين : « عمرو بن العاص » « وأبي موسى الأشعري » ، إلا أنهم غير مجمعين على تكفير مرتكبي الذنوب الكبيرة ، فقد قالت « النجدات » إحدى فرقهم : « إن صاحب الكبيرة كافر نعمة وليس كافرا ديناً » .

ومحور هذه المسألة — مسألة التكفير — في أيامنا هذه ، قوله تعالى في سورة المائدة آية رقم (٤٤) ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . فلا شك أن الحكم بغير ما أنزل الله كبيرة الكبائر ، لكن يجب أن نفرق بين الامتناع عن الحكم بما أنزل الله إنكارا أو استخفافا ، ولا جدال في الحكم عليه بالكفر ، وبين الامتناع عن الحكم بما أنزل الله إهمالا وتقصيرا ، ولا جدال في عدم كفره ، وإنما يعتبر عاصيا ومرتكب كبيرة ، لا تخرجه من دائرة الإسلام بحال من الأحوال ، وعبرة « الزمخشري » في تفسيره « الكشاف » قاطعة في ذلك ، فقد قال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. والظالمون والفاسقون . وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة ، وتمردوا حين حكموا بغيرها » (١) .

وكل دلائل الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة ظواهر نصوص — كما يرى الشيخ أبو زهرة في « تاريخ الجدل » قد نظروا إليها نظرا سطحيا ولم يدركوا مراميها ولا أسرارها ، ولم يصيبوا هدفها .

ومما يؤسف له : أن بعض الشباب المتطرف ، فاق الخوارج تطرفا ، فهذا البعض يكفر المجتمع ككل ، ربما لأن المجتمع يعيش حياة لا يحكم فيها بما أنزل الله ، وهو راض عن ذلك ، بينما الخوارج يكفرون أشخاصا بذواتهم أو بصفاتهم ، وهذه مأساة ما بعدها مأساة .

« مسألة الهجرة » :

تعني الهجرة في نظر أولئك الشباب « اعتزال المجتمع » هذا الاعتزال يأخذ إحدى صورتين : اعتزال المجتمع من الداخل ، أو اعتزاله من الخارج ، وإن كانت كلتا الصورتين تنتهي إلى السلبية المطلقة وإن اختلفنا في التكيف والأثر .

وتعني الصورة الأولى — الاعتزال داخليا — الانفصال عن المجتمع وهو يعيش في داخله ، يفرض أن يكون لبنة من لبناته ، وعضوا عاملا في جسده .

وتعني الصورة الأخرى — الاعتزال خارجيا — ما تعنيه الصورة الأولى ، وتزيد عليها ، هجر المجتمع نهائيا ، واللجوء إلى الكهوف والجبال .

ومما يؤسف له أبلغ الأسف ، اعتبار مثل هذا السلوك سلوكا دينيا ، أساسه : أن المجتمع مجتمع جاهلي ، غير جدير بالمسلم أن يعيش فيه ، أو أن يتعامل معه .

ومن هذا المنطلق : لجأ بعض الشباب إلى الكهوف والجبال للعبادة ، وفي هذا إساءة لمفهوم العبادة ، فليس منه الانقطاع عن الدنيا ، وإذا طبق ذلك المفهوم الخاطئ فأى معنى لقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ الجمعة — ١٠ .

ولقوله تعالى في سورة الملك : الآية ١٥ ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

إن الحق سبحانه وتعالى في سورة النور قد وعد الذين آمنوا منا — نحن المسلمين — بالاستخلاف في الأرض، فقال ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم ﴾ الآية ٥٥ ، ولا نظن أن الله عز وجل يحقق وعده للكسالى ساكني الكهوف والجبال .

ومن هذا المنطلق أيضا ، انقطاع بعض الشباب عن التعليم والامتناع عن الاشتغال بوظائف الدولة ، لأن مفهوم العلم عندهم هو العلم الديني — فحسب — وبذلك نسجل على الإسلام عداوته للعلم ، كما نسجل على علماء السلف المسلمين انحرافهم عن الإسلام ، لاشتغالهم بالعلوم الكونية والإنسانية والاجتماعية وغيرها من سائر العلوم الحضارية .. أما الامتناع عن تولى الوظائف الحكومية ، فأساسه عندهم : أن في أموال الدولة شبهة ، فهي تتعامل بالربا ، وتحصل على رسوم وضرائب من تجارة الخمر .

إن من المسائل التي أخذ بها الإمام « مالك » — رحمه الله — في إطار المصالح المرسلة : أنه إذا طبق الحرام الأرض .. أو ناحية من الأرض .. وأفسدت الطرق المكاسب الطيبة .. ومست

الحاجة إلى الزيادة عن سد الرمق ، فإنه يسوغ لآحاد الناس إذا لم يسهل الكسب الحلال ، أن ينالوا كارهين من بعض هذه المكاسب الخبيثة ، دفعا للضرورة وسداً للحاجة ، لأن الدين يسر ، وما جعل الله علينا في الدين من حرج ^(١٢) .

وهذا هو فقه الإسلام ..

هل يعقل أن يعتزل المسلمون الحياة ويتركوها للشيوعية والصليبية والصهيونية ؟ وأن يترك الشباب المسلم الوظائف لأعداء الدولة المسلمة ، أو لشباب يعيش بعيدا حتى عن هامش الإسلام ؟ وأن يهجر شبابنا المسلم وفتياتنا المسلمات المعاهد والجامعات لغيرهم ولغيرهن ، ليصبح زمام الأمور كلها في ديار الإسلام لغير المسلمين والمسلمات ؟

في إحدى محاضراتي في الجماعات الإسلامية في إحدى الجامعات ، سألتني طالبة في السنة النهائية بكلية الطب ترتدي النقاب ، قالت : إن أبي هددني بأني إذا لم أترك النقاب وأكتفي بالحجاب ، فسيوقف عن الإنفاق علي ، وأفتاني بعض الشباب المسلم بالتوقف عن الدراسة لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقلت لها والشباب يسمع :

إن كثيرا من الفقهاء أفتوا على أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، وأما عبارة « إلا إذا خشيت الفتنة » فهي من مغالاة البعض ، لأن الفتنة تخشى ولو كانت الفتاة مرتدية النقاب .

ثم إن حديث : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » له ارتباط بآية سورة لقمان : ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم .. فلا تطعهما .. وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ ^(١٣) .

ومن ناحية أخرى : إذا تركت أنت وغيرك الكلية ، فمن أين يكون لنا طبيبات مسلمات يتولين علاج نسائنا وبناتنا ؟

مسألة اليسار الإسلامي :

تعتبر من ابتداء الماركسيين في العصر الحديث ، ولفظ « اليسار » لفظ مستورد ، ظهر أول ما ظهر في مجلس العموم البريطاني ، حيث اعتادت المعارضة أن تحتل المقاعد الكائنة على الشمال .

ولا شك في أن مدلول اللفظ في السياسة غير مدلوله في الإسلام ، ففي السياسة يعني « المعارضة » أما في الإسلام فله مدلولات ثلاثة :

مدلول : يعبر عن المكان ، مقابل لفظ « شمال » .

وفي سورة ق : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ^(١٤) .

ومدلول : يعبر عن السلوك المنحرف ، مقابل « اليمين » المعبر عن السلوك السوي وفي سورة الواقعة :

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود ﴾ ^(١٥) إلى آخر الآيات .

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم ﴾ ^(١٦) إلى آخر الآيات .

ومدلول : يعبر عن الاثنين ، المكان والسلوك :

وفي سورة الحاقة :

﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ ^(١٧) .

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : ياليتني لم أوت كتابيه ﴾ ^(١٨) .

إذن الفرق بين المدلولين السياسي والإسلامي ، يتمثل في أن اليسار في الأول يعني معارضة الانحراف ، وفي الآخر يعني الانحراف نفسه ، وقد تطور المدلول السياسي ، حتى أصبح بعد ظهور الماركسية يعني اعتناق المذهب نفسه ، وبخاصة بعد أن صارت كلمة « شيوعية » ثقيلة على الأسماع ممجوجة في الأذهان ، وحلت محلها كلمة « اشتراكية » .

ماذا يعني اليسار الإسلامي :

هذا عنوان بحث موجز للدكتور « حسن حنفي » ، أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، فهو يرى في بداية البحث :

أن كتابات « اليسار الإسلامي » استمرار لجملة « العروة الوثقى » — التي كان يصدرها « الأفغاني » و « محمد عبده » في باريس باللغة الفرنسية — ولجريدة « المنار » — التي كان يصدرها محمد رشيد رضا بالقاهرة — نظراً لارتباطها بالمشروع الإسلامي ، كما حدده الأفغاني : مقاومة الاستعمار والتخلف ، والدعوة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية . وتوحيد المسلمين في الجامعة الإسلامية أو الجامعة الشرقية .

إن الكاتب يصادر فكر مدرسة الأفغاني لحسابه ، فاعتبر حركة الإصلاح التي حاولها وبدأ بها الأفغاني « يساراً إسلامياً » وكأن رأيه ملزم كنصوص الدستور وهدفه هو تأكيد الشعار الذي ينتمي إليه ، وقد كشف عن ذلك فيما بعد ، فعلى الرغم من اعترافه بأن حركة الأفغاني تهدف إلى مقاومة الاستعمار والتخلف .. إلا أنه يقول بعد ذلك :

(.. إلا أن « اليسار الإسلامي » يركز على التمايز في الأمة الإسلامية الواحدة ، بين الأغنياء والفقراء .. بين الأقوياء والضعفاء .. بين القاهرين والمقهورين .. بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئاً .. بين من يوجدون ومن لا وجود لهم .. ولما كانت مؤسساتنا في وجود الطرف الأول وغياب الطرف الثاني ، فإن « اليسار الإسلامي » يركز على الطرف الثاني ، ويعبر عن الأغلبية الصامتة المقهورة بين جماهير المسلمين) .

واضح أن الكاتب هنا يحاول أن يضفي على اصطلاحه الجديد « اليسار الإسلامي » صفة الصراع بين الطبقات ، نفس المنهج الماركسي ، والذي على أساسه قامت الثورة في روسيا عام ١٩١٧ م ، ومسألة هذا الصراع غير واردة في منهج الإسلام ، لأنه يؤدي إلى إثارة الفتنة ، ولأن منهج الإسلام ضنين بإراقة الدماء ، نعم .. في الإسلام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، دعوة إلى إقامة الحق ومقاومة الباطل ، إقامة العدل ومقاومة الظلم ، دونما تفكير في إثارة الصراع الطبقي .

ويمتد الخيال بالكاتب فيرى أن علياً — رضي الله عنه — كان يمثل اليسار ، بينما معاوية كان يمثل اليمين ، وأن الحسين بن علي كان يمثل اليسار ، بينما يزيد بن معاوية ، كان يمثل اليمين .. وهكذا .

وعلى هذا الدرب سار من قبل الأستاذ « صلاح عبد الصبور » ، في مسرحية الحلاج ، واعتبره — شأن غلاة الصوفية — شهيداً ، وعلى الرغم من أن هذا « الحلاج » لم يكن سوى زنديق قرمطي باطني ، إلا أنه في نظر « صلاح عبد الصبور » يمثل الفكر الإسلامي الحر .. وعلى الرغم من أن نظرية الحلاج الإلحادية الهدامة — نظرية الحلول — نظرية فلسفية لا شأن لها بالسياسة من قريب أو بعيد ، إلا أن صلاح عبد الصبور يعتبره ممثل المعارضة لسياسة بني العباس .. وبذلك قتل ظلماً لا حذاً .

وأيضاً كتب الأستاذ « عبد الرحمن الشرقاوي » مسرحيته « الحسين ثائراً » حيث يعتبر الحسين ممثلاً لليasar — المعارضة — أي معارضة سياسة الدولة الأموية .

وللحقيقة والتاريخ ، دونما تأثر بالعواطف أقول :

إن « الحسين » خرج مطالباً بالخلافة ، لأنه يرى أحقيته بها ، لكن دولة بني أمية كانت قد استقرت ، ولهذا المعنى تنازل أخوه « الحسن » عن الخلافة « لمعاوية » حقناً لدماء المسلمين ، كما نصح البعض — ومنهم « ابن عباس » وغيره — الحسين بعدم الخروج ، بل لقد سأل الحسين « الفرزدق » الشاعر وهو عائد من العراق ، سألته عن أهل العراق ، فأجاب : يا ابن بنت رسول الله : القلوب معك والألسنة عليك .

* * *

لماذا يحرص اليساريون اليوم ، على إثارة مثل هذه القضايا إلا إذا كان الهدف هو إبراز الصفحات القلقة في تاريخ هذه الأمة ؟

لقد أثير مثلها في مجلس عمر بن عبد العزيز فقال :

« تلك أحداث مضت ، وقد برأ الله أيدينا من دمائها ، ونرجوه — سبحانه — أن يرى ألسنتنا من الخوض فيها » .

وخلاصة القول :

إن شعار « اليسار » شعار مستورد ، ولا شك أن الإسلام يقرر حرية الفكر وحرية الرأي ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية ، وهي أهم السبل لكي يؤدي الرأي الحر واجبه ، إذن فما أغنى الفكر الإسلامي عن شعار مستورد ، يدعو إلى تنمية الصراع الطبقي الذي لا يعرفه الإسلام .

* * *

بين الفكر المعتدي .. والفكر المستورد

ما المقصود بالفكر المعتدي ؟

وما المقصود بالفكر المستورد ؟

مع أن كليهما فكر يتضمن اعتداء على أصالة الفكر الإسلامي ..

وأقول : إن الفكر المعتدي هو ذلك الفكر الذي ينبع من داخلنا ، أما الفكر المستورد ، فهو ذلك الذي يتسلل إلينا من خارجنا .

ويتضح الفرق بينهما في درجة الخطورة ، ولا شك أن الأول أخطرهما ، لأنه ينطلق باسم الإسلام ، ويتأثر به العامة من المسلمين ، بينما الآخر يواجه الإسلام بعداوة سافرة ، وأكثر ما يضطلع به ، هو النيل من الإسلام عقيدة وفكرا وأسلوبا ومنهاجا ، وأكثر من يضطلعون به هم المستشرقون والمبشرون .

ولنبداً بالفكر المعتدي :

ذلك الذي ينبع من داخلنا ، ويتمص ثوب الفكر الإسلامي ، وهو يتخذ مساره في أشكال ثلاثة : شكل ينحو نحو العقيدة ، وشكل ينحو نحو السياسة والاجتماع ، ثم شكل ينحو نحو الترف .

أولاً : العقيدة :

والتوحيد هو جوهر العقيدة ، هذا الجوهر ظل بخير زهاء القرون الثلاثة الأولى من تاريخ هذه الأمة ، وكانت عقيدة السلف هي المهيمنة حتى نبتت الصوفية من مزيج من الأفكار الدخيلة ، التي أسهمت الباطنية الحاكمة في صياغتها ، وبظهور الدولة الفاطمية ترعرعت الصوفية وراجت البدع ، وكان أن زاحمت الأضرحة والمشاهد والمقامات بيوت الله ، وبخاصة أضرحة آل البيت ، وراجت مع رواج الأضرحة الأساطير والخرافات ، ينسجها ويروجها سدنتها للارتزاق .. عن طريق صناديق النذور .. ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم حيث يقول :

أحيائنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف ترزق الأموات

لقد قاوم « ابن تيمية » الانحراف عن عقيدة التوحيد ، وأدى به جهاده إلى أن يلقي الله في السجن ، مات ولم يمت فكره .. حتى جاء « محمد بن عبد الوهاب » ، وكان جهاده نظريا وعمليا ، فأرسى قواعد التوحيد الخالص في الجزيرة العربية ، ولكن لم تزل الأرض التي تحتلها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من ديار المسلمين ، التي تزح تحت وطأة الخرافات .

ثانيا : السياسة والاجتماع :

بالنسبة للسياسة : فالقضية المثارة والمثيرة اليوم ، هي قضية « الدين والدولة » ومع أنه من البدهيات أن الإسلام دين ودولة « نظرا وتطبيقا » إلا أن بعض العقليات التي تنتمي إلى الإسلام بحكم شهادات المواليد تثير بلبلة لا مثيل لها .. حتى بعد أن أصبح الإسلام اليوم دينا لا دولة ، وحتى في إطار « الدين » لم يعد هو الإسلام الذي رضىه الله لعباده دينا .

وما دامت أوروبا فصلت الكنيسة عن الدولة ، لأنها لم تكن أهلا لذلك ، وما دام الذئب الأغبر « مصطفى كمال أتاتورك » ، قد ألغى الإسلام ، عمالة للماسونية ، فهل يكون هذا أو ذاك مبررا لأن يطالب بفصل الدين عن الدولة ؟

إن الذي قال : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ، كان يتكلم من موقع القوة ، ولم يتحرك الأزهر لرده فضلا عن ردعه .

ومن هذه القضية الأم ، تنبثق قضية « التشريع الإسلامي » أو « الحكم بما أنزل الله » إن ديار المسلمين تتلكأ في إحياء هذه القضية بمبررات لا وزن لها ، بل إن بعضها يتجاهلها عن عمد ، ومما ذكر من المبررات المضحكة : أن نبدأ أولا بإيجاد مجتمع الكفاية والعدل ، ثم نطبق شريعة الله ، وكان هذا المجتمع المزعوم لا يقوم مع وجود تطبيق شريعة الله . والمفروض منطقيا أن تطبيق الشريعة هو الطريق الأمثل لقيام مجتمع الكفاية والعدل .

وبالنسبة للاجتماع ، فإن مسألة المرأة تطفو دائما على السطح ، والمثير للأسى أن المطالبة بحقوق المرأة ، توحى بأن الإسلام لم ينصف المرأة ، ويتجاهل قادة المظاهرات النسائية في شكل هيئات وجماعات أن المرأة قبل الإسلام وبعده ، لم تكن تحلم بما وصلت إليه المرأة في ظل الإسلام ، الذي أكرم آدميتها وإنسانيتها .

ومن أجل التزلف إلى المرأة ، عمدت بعض السلطات في ديار المسلمين إلى العبث بقانون الأحوال الشخصية ، باسم الإسلام نفسه ، حيث ضيق الخناق على رخصتي الطلاق وتعدد الزوجات ، في الوقت الذي اتجهت فيه بعض دول أوروبا وغيرها إلى إباحة الطلاق ، أما بالنسبة لتعدد الزوجات فإن الغرب يؤثر عليه تعدد العشيقات .. والله في خلقه شؤون .

ثالثا : الترف الفكري :

ما المقصود بالترف الفكري ؟

المقصود هو الانشغال بسفساف الأمور دون معاليها ، وهنا يتمثل الاعتداء من السفساف على المعالي ، بالإضافة إلى وجود بلبلية نحن في غنى عنها .

لقد مضى على الإسلام أربعة عشر قرنا ، وما نزال نناقش مسألة الإسراء . أكان بالجسد أم بالروح ، أم بهما معا ؟ كرامات الأولياء . أهي ثابتة أم غير ثابتة ؟ مسألة المهدي المنتظر الذي قيل : إنه سيظهر آخر الزمان ليملاً الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

ولك أن تتصور أن الغرب قد غزا القمر ، ونحن ما نزال نناقش جواز أو عدم جواز الصورة الفوتوغرافية ؟ قراءة البسملة قبل الفاتحة في الصلاة واجبة أم مندوبة ؟ صوت المرأة أهو عورة أم غير عورة ؟ قراءة سورة الكهف بالمسجد قبل الجمعة جائزة أو غير جائزة .. ؟ هل كان « علي » أحق بالخلافة من « أبي بكر وعمر » ؟

لندع الشيوعية تدمر الإسلام في أفغانستان ، والصليبية تدمر الإسلام في الفيلبين ، وهما معا يتعاونان على تدمير الإسلام في أريتريا ، ولندع البوذية في تايلاند وبورما ، والهندوكية ، في الهند ، تحاولان تصفية الوجود الإسلامي .

ولندع الحرب الجاهلية تسفك دماء المسلمين بأيدي المسلمين في الخليج ، وفي تشاد ، وفي لبنان ، وفي الصحراء الغربية .. ونشغل أنفسنا بالمهدي المنتظر ، وصوت المرأة ، وقراءة البسملة وسورة الكهف ، وكرامات الأولياء .

* * *

حول الفكر المستورد :

والفكر المستورد ليس في حاجة إلى شرح لاصطلاحه ، والمهم أن نعرف : أن الهدف الرئيسي لهذا الفكر هو النيل من أصالة الفكر الإسلامي وإشاعة البلبلية والتشكيك في أذهان الشباب المسلم ، الذي ليس لديه رصيد الفكر الإسلامي الأصيل لحمايته ووقايته .

والمهم أن نعرف ثانيا : أن معظم المضطلعين بذلك الفكر : وضعوا وتنسيقا هم المبشرون والمستشرقون ، وأن كتابات هؤلاء وأولئك مبنية في مؤلفاتهم ، وفي دوائر المعارف ، ولا تثير الدهشة مثل : دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية ، أو دائرة المعارف الفرنسية أو الألمانية ، أو الروسية ، لأنها دوائر معارف خاصة ، وإنما الذي يثير الدهشة أن يتعمد النيل من الفكر الإسلامي ، ما يصدر عن هيئة تتبع الأمم المتحدة ، أعني .. « هيئة اليونسكو » ففي تاريخ الحضارة ، الذي

أصدرته الهيئة ، في المجلد الثالث منه ، بضع عشرة صفحة عن الإسلام بدأت بهذه العبارة : « الإسلام تركيب ملفق من اليهودية والمسيحية والوثنية » ومما هو جدير بالذكر أن الدول الإسلامية ، تسهم بأموال لهذه الهيئة هي من أموال المسلمين^(١٩) .

وليست كتابات المبشرين مصدر خطر مثل كتابات المستشرقين ، لأن المبشرين صرحاء في معاداتهم للإسلام ، أما المستشرقون فهم يرتدون رداء العلماء ، ويزعمون أن هدفهم التحقيق والوصول إلى الحقيقة ، وإن كان رداؤهم سرعان ما يتحول إلى ثوب الرياء الذي يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عار ، كما يقول الشاعر العربي أبو النجم التهامي .

والمجال لا يتسع هنا لسرد حتى أقل القليل من مفتريات المبشرين والمستشرقين ، ولا للكشف عن فكر العلمانية ، والماركسية والوجودية ، والماسونية ومشتقاتها ، باعتبار أن العالم الإسلامي أكثر البلاد استيرادا لفكرها ، ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد أمران رئيسيان :

الأول : أن الفكر المعادي المستورد ، قد تسلل إلينا في فترات ضعف الدول الإسلامية ، وأصبح له من المسلمين أنفسهم تلامذة وعملاء ، يروجونه ، ويدافعون عنه بحماس ، ومكمن الخطر أن هؤلاء التلاميذ والعملاء يتولون في ديارنا مراكز مرموقة حساسة في الجامعات والمعاهد ، وفي وسائل الإعلام .

الثاني : أن تصدي الفكر الإسلامي المعاصر لذلك الفكر المعادي المستورد يشوبه القصور والتقصير ، فالقصور لأننا كثيرا ما نكون دون مستوى عمق ذلك التفكير ، فنفرغ طاقتنا في محاوراة الشكل دون الجوهر ، والخطوط الثانوية دون الضرورية ، وقد قال « مالك ابن نبي » المفكر الجزائري — رحمه الله — :

« إن مساوئ طريقة هذا العلاج ، تظهر لي أكثر من حسناتها .. وإن ما يصيب مجتمعا ما في

منعطفات التاريخ الخطيرة .. ليس من قلة أشياءه ، ولكن من فقر أفكاره »^(٢٠) .

وبالنسبة للتقصير : فإن كمية الرد على الفكر المعادي المستورد — إذا نحن استبعدنا الهش والغث منها — ضئيلة إلى حد مخجل بالنسبة إلى كمية ذلك الفكر المعادي ، وبالنسبة للنشر — وهذا هو المهم — فبينما يكتب الفكر المعادي بلغة عالمية ، تغزو الآفاق الإنسانية ، نكتفي نحن بالرد بلغاتنا المحلية في كتب محدودة النسخ .

والمسؤولية — أولا وأخيرا — ليست مسؤولية السلطات في الدول المسلمة ، لأن هذه السلطات — إلا أقلها — لا تهمها القضية في قليل أو كثير ، إلا بقدر ما تفيد منها إعلاما وإعلانا ودعاية — وإنما هي في المقام الأول مسؤولية الهيئات الإسلامية الكبرى التي لا يخل عليها بالأموال الطائلة : الرسمية وغير الرسمية .. هذه الهيئات حتى اليوم لم تستطع أن تنهياً للدراسة

والتخطيط والتنسيق ، لمواجهة الفكر المعادي المستورد .. فالمال موجود .. والمفكرون موجودون ، وليس على هذه الهيئات الإسلامية إلا أن تعطي الإشارة .. ليبدأ العمل .

* * *

خاتمة :

يقول الدكتور محمد البهي — رحمه الله :

« .. والمجتمعات الإسلامية .. هي في سياستها أقرب إلى ترك المقاليد — مقاليد الأمور — فيها إلى « المصادفة » و « ما تأتي به الرياح » منه إلى أن تكون مستندة فيها إلى إدارة ومنهج دقيق .. برغم كثرة الحديث في بعضها عن « العزم » و « الخطة » .. وما إلى ذلك مما يلفت النظر ، دون أن يكون لها مدلول في تغيير مجرى الحياة » .

« ومعنى : ترك مقاليد الأمور في المجتمع إلى المصادفة أكثر منه إلى الإرادة .. هو أن طغيان المادية الانحلالية الوافدة ، ستستمر موجتها في الزيادة .. وبهذا يزداد الضغط في اتجاه انحسار الروحية الإسلامية ، فلا تستطيع أن تكون عاملا موجها بعد حين آخر من الزمن ، ويبقى الشباب المسلم المعاصر في حيرته .. وحيرته هذه لا حدود لها .. وليس بغريب عليه بعد ذلك .. أن يكون هذا الشباب « فوضويا » وعديم المبالاة والمسؤولية .. أو يكون « نائرا » ومخربا وهداما ، دون أن تكون لديه استطاعة وطاقة على البناء والتعمير من أجل مجتمع سليم » ^(٢١) .

ومثل هذا الكلام له خطورته .. لا لأنه — فحسب — صادر من فكر إسلامي له قدره وشأنه : صدق عقيدة وغيره ، وصفاء عقل وذهن — بل أيضا لأنه كلام جريء يضع النقاط على الحروف ، ويحيي بمثابة إنذار للمجتمع المسلم المعاصر الذي يستمرئ السلبية بوضع رؤوسه في الرمال كالنعام ، ومحور هذا الخطر — كما يرى الدكتور — هو وجود أزمة في الفكر الإسلامي الأصل في مواجهة الفكر الدخيل .. إن قوة الصراع الفكري الدخيل : في دفعه ، وتكتل العوامل الأجنبية والمحلية على إقحامه في المجتمعات الإسلامية من جانب .. ولضعف العرض والتوضيح للنموذج الإسلامي الأصل ووقوف ذلك عند الماضي وحده من جانب آخر .

لهذا وذاك .. تخلخلت هذه القيم في صلاحيتها لحياة الإنسان المعاصر .. ولا ترجع قوة الفكر الدخيل في صراعه ضد مبادئ الروحية الإسلامية إلى قيمته الموضوعية ، وإنما إلى الإغراء في عرضه ، وإلى استخدام الوسائل الحضارية الفنية ، وفي شيوعه .. بجانب العمل على إظهار الروحية الإسلامية .. وإظهار الداعية لها أو المنتسبين إليها في مظهر الضعيف الذي لا يقوى على الحياة .. فضلا عن المواجهة لهذا الدخيل .

ويرجع « مالك بن نبي » أزمة المفكر الإسلامي ، إلى وجود أفكار ميتة وأفكار قاتلة ، والأفكار الميتة : هي نتيجة تركة ثقافية لم تُصَفَّ ، أما الأفكار القاتلة ، فهي نتيجة تقليد أعمى .. ويرى : أنه عندما يكون الفكر الإسلامي — أي الأصل — في حالة أفول — كما هي حاله في

الوقت الحاضر — فإنه يغرق في التصوف ، وفي المبهم ، وفي عدم الدقة وفي النزعة إلى التقليد الأعمى ، وفي الإعجاب بأشياء الغرب » (٢٢) .

* * *

ثم ماذا بعد ذلك ؟

يرى المفكر الإسلامي الأستاذ « محمود محمد شاكر » — أن المعركة بين الإسلام وخصومه ، لم تكن معركة واحدة في ميدان واحد ، بل كانت معركة في ميدانين : ميدان الحرب وميدان الثقافة .. ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب لأسباب معروفة . أما ميدان الثقافة .. فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلا بعد جيل ، بل عاما بعد عام ، بل يوما بعد يوم .. وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين ، وأبعدهما أثرا ، وأشدّهما تقويضا للحياة الإسلامية والعمل الإسلامي .. وكان عدونا يعلم ما لا نعلم ، وقد كان ما أراد الله أن يكون .. وتتابع هزائم العالم الإسلامي في ميدان الثقافة جيلا بعد جيل .. وكما بقيت معارك الحرب متتابعة سرا مكتوما لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندها حتى هذا اليوم ، بقيت أيضا معارك الثقافة — على تطاولها — سرا خافيا ، لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية ، وأصبح جندها أيضا .. تبعا يأتَمرون بأمر القادة من أعدائهم ، عارفين أو جاهلين : أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدوا للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه (٢٣) .

هل مثل هذا الكلام في حاجة إلى تعليق ؟ لا أظن ذلك ..

ولكن الذي يحتاج إلى تعليق :

إلى متى يظل الفكر الإسلامي الأصيل في أزمة طاحنة ؟

هل يكفي أن ندرك ذلك ، وننجح في تحليل أبعادها ، وتشخيص عللها .. دون أن نخطو خطوة واحدة .. نحو العمل على إيجاد حل لهذه الأزمة الطاحنة ؟

إلى متى نظل نقول كثيرا ولا نعمل قليلا أو كثيرا .. والعدو المتربص بنا الدوائر لم يلق السلاح بعد .. ولن يلقيه ما دمنا نستمرئ السلبية وندفن رؤوسنا في الرمال ؟

ما أكثر الجامعات الإسلامية في ديارنا — وعلى رأسها الأزهر — ولكن حتى اليوم نرى هذه الجامعات لا تتحرك ، ولا تحاول أن تفكر في أن تتحرك .. ويبدو أنها لن تتحرك إلا بدرجة عمر ، ومن أين لنا اليوم بِدُرّةِ عمر ؟

* * *

المراجع

- القرآن الكريم
السنة النبوية
مراجع الملل والنحل
الأصول الفكرية للدولة الإسلامية
معالم في الطريق
هذا الدين
تاريخ الجدل
أصول الفقه
قضايا الفكر الإسلامي المعاصر
أزمة العقل العربي
مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي
إنتاج المستشرقين
السلطات الثلاث في الإسلام
الفكر الإسلامي في تطوره
غيوم تحجب الإسلام
الفرق بين الفرق
مقدمة الظاهرة القرآنية
مفتريات اليونسكو على الإسلام
- جمال البنا
سيد قطب
سيد قطب
محمد أبو زهرة
محمد أبو زهرة
الندوة العلمية للشباب الإسلامي
الدكتور محمد إبراهيم الفيومي
مالك بن نبي
مالك بن نبي
الدكتور محمد البهي
الدكتور محمد البهي
الدكتور محمد البهي
الاسفرائيني
محمود محمد شاكر
محمد عبد الله السمان

* * *

الهوامش

- (١) دار الطباعة الحديثة — القاهرة — الطبعة الأولى يوليو ١٩٧٩ والكاتب شقيق الإمام الشهيد « حسن البنا » وخبير استشاري بمنطقة العمل الدولية .
- (٢) « معالم في الطريق » طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٩٧٨ م .
- (٣) « السلطات الثلاث في الإسلام » للدكتور سليمان الطماوي عميد كلية حقوق عين شمس سابقا ، ومن لهم اهتمامات بالفكر الإسلامي .
- (٤) « الفكر الإسلامي في تطوره » مكتبة وهبه — القاهرة — الطبعة الثانية ١٩٨١ م والدكتور البهي كان أستاذا للفلسفة الإسلامية ووزيرا للأوقاف وشئون الأزهر .
- (٥) بحث ألقاه الكاتب في اللقاء الثاني عن قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ١٩٧٣ م والذي عقدته الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض — السعودية .
- (٦) « هذا الدين » دار الشروق — القاهرة .
- (٧) « تاريخ الجدل » — دار الفكر العربي — القاهرة — طبعة ثانية ١٩٨٠ م .
- (٨) كتب الفرق الإسلامية .
- (٩) « موقفنا من التراث » — مجلة عالم الفكر — الكويت — المجلد ١٤ — العدد الثاني ١٩٨٣ م .
- (١٠) « أزمة العقل العربي » — مكتبة الأنجلو — القاهرة — الطبعة الأولى ١٩٨٣ م .
- (١١) يراجع : الفرق بين الفرق ومقالات الإسلاميين — تفسير ابن كثير ، ثم « دعاة لاقضاء » للأستاذ الهضيبي .
- (١٢) « أصول الفقه للشيخ أبي زهرة » — دار الفكر العربي — القاهرة ١٩٧٣ م .
- (١٣) آية رقم ١٥ .
- (١٤) آية رقم ١٧ .
- (١٥) آيات ٢٧ ، ٢٨ .
- (١٦) آيات ٤١ ، ٤٢ .
- (١٧) آية ١٩ .
- (١٨) آية ٢٥ .
- (١٩) رددت على الونسكو ببحث بعنوان : « مفتريات الونسكو على الإسلام » وقريبا تصدر الطبعة الثانية منه عن دار الاعتصام بالقاهرة إن شاء الله .
- (٢٠) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث — دار المتنبي — القاهرة .
- (٢١) « غيوم تحجب الإسلام » مكتبة وهبه — القاهرة — الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .
- (٢٢) « مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي » — مكتبة المتنبي — القاهرة ١٩٧١ م .
- (٢٣) مقدمة « الظاهرة القرآنية » لمالك بن نبي .

